



وداعاً دي ميستورا... وداعاً القرار 2254... هكذا نطق وليد المعلم باسم سيده بشار الأسد. ولا جديد في الأمر، فالنظام الذي أفشل مهمات مبعوثين أمميين ثلاثة لم يرد منذ البداية حلّاً سياسياً، ومثله النظام الإيراني الذي لا يزال يستثمر في المحنّة السورية وينجز مخططاته. أما حليفهما الروسي فكان حلّه المفضل يستند على الدوام إلى وجود الأسد ونظامه. وحين تخطّى دمشق نحو عرقلة تشكيل اللجنة الدستورية أو تجميده، فإنها تنفذ أجندته خفية لموسكو أو توفر لها ورقة مساومة مع الدول الغربية.

أكثر من سبب لهذه الخطوة: أولاً، انتهت مهمة ستيفان دي ميستورا ولم يعد مفيداً التعاون معه، وكانت موسكو استغلّت سوء إدارته كما استغلّت تقلبات السياسة الأميركيّة في الإدارتين المتعاقبتين لضرب مفاوضات جنيف وإفراج القرار 2254 من أي مضمون يشير إلى «الانتقال السياسي».

ثانياً، قدر النظام أنها اللحظة المناسبة للتخلص من إشراف الأمم المتحدة على إنهاء الأزمة السورية، وأن فترة اختيار مبعوث أممي جديد وجاهزه للعمل يجب أن تستغلّ لتغيير الواقع والمعطيات التي يراد للحل السياسي أن يستند إليها. ثالثاً، بعدما قال الوزير المعلم أن اللجنة «شأن سيادي» وأشار إلى أن دول «مسار آستانة» الثلاث يمكن أن تتفق على اللائحة الثالثة لأعضاء اللجنة الدستورية (تضم مستقلين ونشطاء لمجتمع المدني) وتقدمها إلى الأمم المتحدة، أي أن «السيادة»

مصالحة مع تلك الدول، خصوصاً إذا رضخت تركيا لتوافق روسيا وإيران. وهذا يبطن نية لم تخلّ عنها لطاحنة «مسار جنيف» نهائياً والاستفراد بفرض عناصر الحل.

يبرمג النظام تمنياته لتتسق مع أهداف روسية وإيرانية معلنـة أو مبيـنة. لذلك، يعوـل في مسألـة الدستور على تفاهمـات خاصة مع حليفـيه، ولا يزال يفضل إبقاء دستور عام 2012 مع بعض التعديلـات، أما إذا أـريد للجنة الدستوريـة أن تـنكـب على كتابـة دستور جـديد فإنـ النظام يـسعـى إلى الحصول على ثـلـثـيـة اللجنة (لـائـته ولـائـةـ المستـقلـين) ومنـ المعـرـوفـ أنـ لـائـةـ المـعـارـضـةـ مـخـتـرـقةـ منـ جـانـبـ «ـمنـصـةـ مـوسـكـوـ»ـ وبـعـضـ «ـمنـصـةـ الـقاـهـرـةـ». كانتـ مـوسـكـوـ استـطـاعـتـ التـروـيجـ لـلـتـفـاوـضـ عـلـىـ الدـسـتـورـ باـعـتـبارـهـ تـفـاوـضاـ عـلـىـ «ـاـنـتـقـالـ سـيـاسـيـ»ـ عـبـرـ اـنـتـخـابـاتـ يـمـكـنـ الأـسـدـ التـرـشـحـ فـيـهاـ،ـ وـهـذـاـ ماـ قـدـمـ غالـباـ بـصـيـفـةـ أـنـ «ـمـصـيـرـ الأـسـدـ مـرـتـبـطـ بـإـرـادـةـ الشـعـبـ السـوـرـيـ»ـ،ـ لـكـنـ المـتـعـارـفـ عـلـىـ أـنـ هـذـاـ المـبـدـأـ كـانـ دـائـماـ مـطـاـطاـ وـغـامـضاـ أـوـ مجـرـدـ مـخـرـجـ لـفـظـيـ لـئـلاـ يـقـالـ أـنـ مـوـاقـفـ الـأـطـرافـ مـتـبـاعـةـ،ـ لـذـاـ تـبـنـتـ القـمـةـ الـرـبـاعـيـةـ الـأـخـيـرـةـ فـيـ إـسـطـنـبـولـ.ـ أـمـاـ العـقـدـةـ الـأـبـرـزـ فـيـ كـاتـبـةـ الدـسـتـورـ فـتـعـلـقـ بـصـلـاحـيـاتـ الرـئـيـسـ وـاقـتـراـجـ تـقـليـصـهـ وـنـقـلـ مـعـظـمـهـ إـلـىـ رـئـيـسـ الـحـكـومـةـ،ـ وـبـدـهـيـ أـنـ النـظـامـ يـرـفـضـ تعـديـلاـ كـهـذاـ،ـ كـذـلـكـ الـرـوـسـ وـالـإـيـرـانـيـونـ،ـ ماـ يـفـسـرـ الضـغـطـ لـلـحـصـولـ عـلـىـ الـلـثـلـثـيـنـ وـأـكـثـرـ.ـ وـيلـفـتـ كـثـرـ مـنـ الـخـبـراءـ إـلـىـ أـنـ الصـوـغـ الـعـائـمـ لـلـصـلـاحـيـاتـ الرـئـيـسـيـةـ أـفـسـدـ طـرـيقـةـ تـطـبـيقـهاـ،ـ وـقـدـ أـدـىـ النـمـطـ الـسـلـطـوـيـ الـذـيـ كـرـسـهـ نـظـامـ الـأـسـدـ الـأـبـ ثـمـ الـابـنـ إـلـىـ اـسـتـحـواـزـ حـاـكـمـ فـرـدـ عـلـىـ كـلـ الـصـلـاحـيـاتـ وـالـتـصـرـفـ بـهـاـ وـفـقـاـ لـمـفـاهـيمـ وـمـزاـجـهـ الـاستـبـداـريـ.

كـانـتـ ردـودـ الفـعـلـ الدـولـيـةـ عـلـىـ رـفـضـ النـظـامـ أـيـ دورـ لـلـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ فـيـ تـشـكـيلـ الـلـجـنةـ الدـسـتـورـيـةـ ضـعـيفـةـ وـشـكـلـيـةـ،ـ لـكـنـهاـ انـطـوـتـ عـلـىـ أـمـرـيـنـ:ـ أـولـهـماـ،ـ إـدـرـاكـ الجـمـيعـ أـنـ تـفـاهـمـ الـدـوـلـ الـمـعـنـيـةـ،ـ لـاـ سـيـماـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ وـرـوـسـيـاـ هوـ مـاـ سـيـحـكـ عـمـلـ الـلـجـنةـ الدـسـتـورـيـةـ أـيـاـ تـكـنـ تـشـكـيلـهـاـ،ـ فـهـيـ أـصـبـحـتـ مـنـطـلـقـ الـحلـ السـيـاسـيـ وـمـحـورـهـ.

وـالـثـانـيـ،ـ أـنـ نـظـامـ دـمـشـقـ يـحاـوـلـ اللـعـبـ عـلـىـ التـنـاقـصـاتـ الـمـسـتـجـدـةـ فـيـ شـأنـ الـحلـ السـيـاسـيـ سـوـاءـ بـيـنـ رـوـسـيـاـ وـأـمـيرـكـاـ مـنـ جـهـةـ،ـ أـوـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ دـوـلـ «ـالـمـجـمـوعـةـ الـمـصـغـرـةـ»ـ الـتـيـ تـضـمـ إـلـىـ أـمـيرـكـاـ كـلـاـ مـنـ فـرـنـسـاـ وـبـرـيـطـانـيـاـ وـأـلـمـانـيـاـ وـالـسـعـودـيـةـ وـالـأـرـدـنـ.ـ لـكـنـ أـحـدـاـ لـاـ يـعـتـقـدـ أـنـ نـظـامـ دـمـشـقـ هوـ الـذـيـ يـمـكـنـ أـنـ يـحـسـمـ مـوـقـفـ رـوـسـيـاـ أـوـ يـؤـثـرـ فـيـهـ عـلـىـ نـحـوـ حـاسـمـ.ـ وـقـدـ ظـهـرـ عـدـمـ الـاـهـتـامـ بـمـاـ أـبـلـغـهـ وـلـيـدـ الـمـعـلـمـ إـلـىـ سـتـيفـانـ دـيـ مـيـسـتـورـاـ خـلـالـ القـمـةـ الـرـبـاعـيـةـ فـيـ إـسـطـنـبـولـ،ـ إـذـ لـمـ يـشـرـ إـلـيـهـ أـيـ مـنـ الـمـشـارـكـينـ،ـ باـسـتـثـنـاءـ فـلـادـيمـيرـ بوـتـينـ الـذـيـ قـالـ أـنـهـ سـيـسـتـشـيـرـ الـنـظـامـ وـ«ـالـحـلـفـاءـ الـإـيـرـانـيـيـنـ»ـ الـذـيـنـ نـوـهـ بـ«ـأـهـمـيـةـ دـورـهـ»ـ فـيـ الـحلـ.

يـرـيدـ النـظـامـ وـالـإـيـرـانـيـونـ حـالـيـاـ إـقـنـاعـ الـحـلـيفـ الـرـوـسـيـ بـأـنـ الـأـزـمـةـ دـخـلـتـ مـرـحـلـةـ جـدـيـدةـ تـتـطـلـبـ أـفـكـارـاـ جـدـيـدةـ،ـ مـنـهـاـ العـودـةـ إـلـىـ التـشـاـورـ الدـوـلـيـ لـلـتـوـصـلـ إـلـىـ تـصـوـرـ آخرـ مـشـترـكـ،ـ عـلـىـ غـرـارـ التـشـاـورـ الـذـيـ حـصـلـ فـيـ فـيـبـرـاـنـ وـأـفـضـيـ أـوـاـخـرـ عـامـ 2015ـ إـلـىـ الـقـرـارـ 2254ـ الـذـيـ أـدـىـ فـيـ نـظـرـهـمـ إـلـىـ إـضـعـافـ مـفـاهـيمـ «ـبـيـانـ جـنـيفـ»ـ لـلـحلـ السـيـاسـيـ.ـ وـيـنـطـلـقـ الـنـظـامـ وـالـإـيـرـانـيـونـ فـيـ طـرـحـهـمـ هـذـاـ مـنـ جـملـةـ مـتـغـيـرـاتـ أـهـمـهـاـ أـنـ الـمـعـطـيـاتـ عـلـىـ الـأـرـضـ لـمـ تـعـدـ تـتيـحـ لـلـأـطـرافـ الـأـخـرـىـ فـرـضـ شـرـوطـهـاـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ الـحلـ السـيـاسـيـ،ـ وـمـنـهـاـ أـيـضـاـ أـنـ مـسـارـ آـسـتـانـةـ اـسـتـطـاعـ أـنـ يـغـيـرـ وـاقـعـ الـأـزـمـةـ وـاـكـتـسـبـ زـخـماـ فـيـ حـينـ أـنـ مـسـارـ جـنـيفـ أـنـهـكـ وـلـمـ يـعـدـ فـاعـلـاـ.ـ يـضـافـ إـلـىـ ذـلـكـ أـنـ مـوـقـفـ رـوـسـيـاـ مـرـشـحـ لـلـتـرـاجـعـ إـذـاـ تـمـكـنـتـ الـعـقـوبـاتـ الـأـمـيرـكـيـةـ مـنـ إـضـعـافـ إـلـرـانـ،ـ أـوـ إـذـاـ فـجـرـتـ تـلـكـ الـعـقـوبـاتـ مـوـاجـهـةـ أـمـيرـكـيـةـ -ـ إـيـرـانـيـةـ لـاـ بـدـ أـنـ تـنـعـكـسـ عـلـىـ الـوـضـعـ فـيـ سـوـرـيـةـ...ـ كـلـ ذـلـكـ يـتـطـلـبـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ دـمـشـقـ وـطـهـرـانـ إـمـاـ أـنـ تـبـادـرـ مـوـسـكـوـ إـلـىـ فـرـضـ حـلـ تـبـدوـ تـرـكـيـاـ أـكـثـرـ اـسـتـعـادـاـ لـلـانـخـرـاطـ فـيـهـ بـعـدـمـاـ أـغـرـيـتـ بـورـقـةـ إـدـلـبـ «ـالـمـوقـتـ»ـ،ـ أـوـ فـيـ أـسـوـأـ الـأـحـوـالـ أـنـ تـضـغـطـ مـنـ أـجـلـ قـرـارـ دـوـلـيـ جـدـيدـ يـتـضـمـنـ تـرـاجـعـاتـ أـخـرـىـ عـنـ الـ2254ـ وـ«ـبـيـانـ جـنـيفـ»ـ.ـ وـمـنـ شـأنـ ذـلـكـ أـنـ

يمنح روسيا وإيران والنظام وقتاً إضافياً لاستكمال إنهاء الصراع على طريقتها. ربما تراود هذه الأفكار روسيا أو تجد فيها وسيلة للخروج من عجزها عن تحريك الحلول، لكن حساباتها الخاصة لا تدفعها باتجاه استفزاز الولايات المتحدة التي عادت فرسخَت وجودها في شمال شرق سوريا.

من جهة أخرى، كانت لافتاً تلك العبارة الصغيرة التي أطلقها رجب طيب أردوغان بعد القمة الرباعية، حين قال أن «انضمام» فرنسا وألمانيا إلى مسار آستانة سيجعل هذه الصيغة «أكثر مثالية». هل كان ذلك مجرد تمنٍ لأن تركيا أقرب إلى الأفكار الغربية بالنسبة إلى الحل السياسي ولأنها غير مرتبطة إلى فقدانها في «المجموعة المصغرة»، أم إنه عرض روسي يرمي إلى انتهاز الخلاف الأوروبي - الأميركي في شأن الاتفاق النووي والعقوبات المشددة على إيران. لم يكن واضحاً في مواقف الرئيس الفرنسي والمستشار الألمانية أن لديهما تقويمًا إيجابياً لصيغة آستانة أو أنهما قربيان من «الانضمام» إليه. ثم إن التساؤل الأول في هذا المجال يتناول مدى استعداد الولايات المتحدة للمشاركة في سيناريو كهذا يراد له أن يعيد الحل السياسي إلى المربع الأول، ويراد منه إعادة إشراك إيران في صيغة موسعة. من المستبعد، نظرياً، أن توافق واشنطن على تكرار اجتماعات فيينا والسعى إلى قرار دولي جديد حتى لو كانت هناك دول أوروبية لا تمانعه أو تريده تجريبه، بل حتى لو عُرض عليها مثلاً قبول مشاركة إسرائيل، إذ تبقى واشنطن مندفعة (مع إسرائيل) في استراتيجية إضعاف إيران ونفوذها الإقليمي.

أكثر من عقدة تكبل خيارات ثلاثي آستانة، وكلها غير مرتبطة حُكماً بالمسألة السورية: روسيا وربطها تسهيل الحل في سوريا بصفقات لن تحصل عليها مع الدول الغربية، إيران وهو جسها بعدها باتت تعرف صعوبات الحفاظ على نفوذها كما تتصوره، تركيا وسعيها إلى هيمنة على أكراد الشمال مع علمها أن «الحليف» الأميركي هو الذي يحدّ طموحها أكثر مما يفعل خصومها. في المقابل عانت «المجموعة المصغرة» من علة مزمنة تتمثل في الخيارات المتقلبة للسياسة الأميركية حيال سوريا، لذلك تحاول دول المجموعة إبقاء حوارها مفتوحاً مع روسيا لكن من دون أوهام. لا شك في أن هذه التعارضات والتداخلات الدولية تتبع لنظام دمشق مواصلة العبث للحفاظ على نفسه لا للحفاظ على سوريا.

المصادر:

الحياة اللندنية